https://doi.org/10.37375/bsj.v7i20.3631

الحركة العلمية في الدولة الرستمية 160–296هـ/ 777–909م

*د. ريم محمود محمد راشد

تاريخ الاستلام: 13/ 8 / 2025 اجازة النشر: 30/ 9/ 2025 تاريخ النشر: 17/ 11/ 2025

المستخلص: يهدف هذا البحث إلى استكشاف ملامح الحركة العلمية والفكرية في الدولة الرستمية خلال الفترة الممتدة ما بين 160–296هـ/777–909م، وهي مرحلة عرفت ازدهاراً ملحوظاً في مجالات العلم والأدب والدين، بفضل ما تميّزت به من استقرار سياسي نسبي، وازدهار النشاطين التجاري والثقافي في حاضرة الدولة تاهرت، وتُعد هذه الفترة حاسمة في صياغة الهوية الثقافية والعلمية للمغرب الأوسط، حيث شهدت المدارس والمجالس العلمية نشاطاً متزايداً في تدريس العلوم الشرعية واللغوية والفكرية، وقد ساهمت في ذلك عوامل متعددة أبرزها اهتمام الأئمة الرستميين بالعلم والعلماء، وإنشاء المراكز التعليمية واستقطاب العلماء من مختلف الأقاليم، وتشجيعهم على التدريس والتأليف، كما برزت تاهرت كأحد أهم المراكز العلمية في المغرب الأوسط، حيث اجتمع فيها علماء بارزون في الفقه والحديث واللغة والفلسفة، وتجدر الإشارة إلى أن بدايات هذه الحركة ارتبطت بظهور دعاة الإباضية في القرن الثاني الهجري قبل أن تنفتح لاحقاً على تيارات فكرية أخرى كالمعتزلة والمالكية وهو ما أسهم في إثراء الحياة الفكرية وتنوعها في هذه الحقبة.

الكلمات المفتاحية: الرستميون، المكتبات، تلمسان، المغرب والأندلس، تاهرت، المساجد.

The Scientific and Intellectual Renaissance in the Rustamid State 160-296 AH / 777-909 AD

Dr. Reem Mahmoud Mohamed Rashed
Associate Professor – Department of History – Faculty of Arts and Languages – University of Tripoli

Abstract: This study aims to explore the features of the scientific and intellectual movement in the Rustamid State during the period 160–296 AH /777–909 CE. This era witnessed a remarkable flourishing in the fields of science, literature, and religion, largely due to a relative political stability and the prosperity of commercial and cultural activities in the state's capital, Tāhart. It was a decisive stage in shaping the cultural and scientific identity of the Central Maghreb where schools and scholarly circles became increasingly active in teaching religious, linguistic and intellectual sciences. Several factors contributed to this development, most notably the Rustamid imams' patronage of knowledge and scholars, the establishment of educational centers, the attraction of scholars from various regions, and the encouragement of teaching and authorship. Tāhart, in particular, emerged as one of the most prominent intellectual hubs of the Central Maghreb, attracting distinguished scholars in jurisprudence, ḥadīth, linguistics, and philosophy. It is worth noting that the beginnings of this intellectual movement were closely linked to the emergence of Ibāḍī scholars in the second/eighth century, before later opening up to other intellectual currents, such as the Muʿtazilites and the Mālikis, which enriched and diversified intellectual life during this formative period.

Keywords: Rustamids, Libraries, Tlemcen, Maghreb and al-Andalus, Tahert, Mosques.

* أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب واللغات، جامعة طرابلس Re.Rashed@uot.edu.ly

المقدمة:

شهد المغرب الأوسط خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين نهضة علمية وفكرية متميزة تمثلت في ظهور مراكز علمية بارزة وإنتاج فكري غني في مختلف المجالات، كالفقه، الحديث، اللغة، الفلك، والطب، وقد أسهمت عدة عوامل في ازدهار هذه النهضة، منها الموقع الاستراتيجي للمنطقة كجسر بين المشرق والمغرب، وانتشار المدارس والمساجد، ودور العلماء المحليين والمشرقيين، تأتي هذه الدراسة لتكشف عن ملامح هذه النهضة وأهم رموزها، وتقييم تأثيرها على المسار الحضاري الإسلامي تسعى هذه الدراسة إلى رصد مظاهر النهضة العلمية والفكرية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، وتحليل العوامل التاريخية والاجتماعية التي أسهمت في ازدهار الحركة العلمية، مع تسليط الضوء على أبرز العلماء والمؤلفات التي ظهرت في تلك الفترة ودراسة تأثير هذه النهضة على الحضارة الإسلامية والعالمية، بالإضافة إلى مقارنة الإنتاج الفكري للمغرب الأوسط ببقية الأقطار الإسلامية في نفس الحقبة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الموضوع قد حظي باهتمام عدد من الباحثين، حيث وقفنا على مجموعة من الدراسات التي تناولت الحركة العلمية والفكرية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، وعلى الرغم من الجهود القيّمة التي بذلتها هذه الدراسات في إبراز ملامح تلك المرحلة، فإننا نأمل أن تسهم هذه الدراسة في إضافة ولو قدر يسير إلى مسار البحث في التاريخ الإسلامي، من خلال تقديم رؤية موسعة تربط بين العوامل التاريخية والاجتماعية والفكرية التي أسهمت في ازدهار هذه النهضة.

وعلى سبيل الذكر لا الحصر من الدراسات السابقة التي أطلعنا عليها مقال لمفيدة ميزان بعنوان: **إسهامات علماء حاضرة تيهرت الرستمية وجهودهم في تفعيل الحركة العلمية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي**، وهو يقدم عرضاً جيداً للحركة العلمية في تاهرت ويبرز دور علمائها في نشاط الحركة العلمية، ومنها مقال لرضوان سحوان بعنوان: **الحركة العلمية بالمغرب الإسلامي: عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم – أنموذجا**، وهو يتناول الحركة العلمية في المغرب الأوسط بقيادة عبد الوهاب بن رستم ويبرز دوره في ازدهار الدولة دينياً وعلمياً، وكذلك مقال بعنوان: **الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة الإباضية فيها** لسعدو تالية وفيه إبراز لدولة المرأة في الحركة الفكرية، واهتمام الأئمة الرستميين بنشر العلم بين جميع طبقات المجتمع.

تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يسهم في إلقاء الضوء على مرحلة مفصلية من تاريخ المغرب الأوسط تبلورت خلالها أسس النهضة العلمية والفكرية التي أسهمت في صياغة الهوية الحضارية للمنطقة وربطها بالمنظومة الثقافية الإسلامية الأوسع، كما يساعد هذا البحث على إبراز دور المغرب الأوسط في إثراء التراث العلمي الإسلامي، ويكشف عن تفاعله مع مراكز العلم المعروفة آنذاك، مما يمنح فهماً أعمق لمسار تطور العلوم والمعارف في العالم الإسلامي خلال فترة سيادة الدولة الرستمية وتسهيلاً للعرض تم تقسيم هذا البحث إلى المحاور الأساسية التالية والتي تبرز ملامح هذه النهضة وتفسر أسبابها وتأثيرها الحضاري.

أولاً/ التمهيد (السياق التاريخي والجغرافي).

ثانياً/ السياق التاريخي للنهضة العلمية في المغرب الأوسط.

ثالثًا/ مظاهر التطور العلمي والفكري وانعكاساته على مسار الحضارة الإسلامية.

1. دور الدولة والمجتمع في ازدهار الحركة العلمية.

2. إسهام المسجد في نشر المعرفة وتعزيز النشاط الفكري.

3. المكتبات.

4.حلقات العلم.

5. دور الحوار والمناظرة في تعزيز الحركة العلمية والتعددية الدينية في تاهرت.

– الخاتمة

– التوصيات

أولاً: التمهيد (السياق التاريخي والجغرافي):

لم يكن الفتح الإسلامي لبلاد المغرب مجرد تحول سياسي، بل كان بمثابة انطلاقة حاسمة شكلت هوية المنطقة بعمق، إذ تخطى أثره الحدود الدينية واللغوية ليرسخ اندماجها في بوتقة الحضارة الإسلامية الكبرى، لقد تجاوز أثره نشر الدين واللغة، ليحقق اندماجاً كاملاً في الحضارة الإسلامية، ويزرع بذور قيم ثقافية جديدة تفاعل معها أهل البلاد وأصبحت جزءاً من نسيجهم الاجتماعي(**جعيط، 2008، ص192**)، مع قيام الدولة الرستمية في المغرب الأوسط خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي (160–292هـ/777–900م)، برزت ملامح نهضة علمية وفكرية جعلت من حاضرتها تاهرت مركزاً حضارياً بارزاً في الغرب الإسلامي، فقد أسهم موقع الدولة الجغرافي في قلب المغرب الأوسط وعلى ملتقى طرق القوافل والتجارة، في استقطاب العلماء والطلاب من مختلف الأقاليم، مما هيأ بيئة ملائمة لازدهار الحركة العلمية (**بكير، 1993، ص262**)، ولم تقتصر إسهامات الرستميين على العلوم الدينية كالفقه والحديث والكلام، بل امتدت لتشمل علوم اللغة والأدب والطب والفلك والحساب، كما كان للنظام السياسي الرستمي أثر بالغ في تشجيع الحياة الفكرية، إذ وفرت الدولة مناخاً من التسامح الديني والفكري جذب إليها العلماء من شتى المذاهب والتيارات(**مكيوي، 2010، ص263**)، وبهذا تحولت تاهرت إلى منارة علمية كبرى، تفاعل فيها الإرث الإسلامي مع تقاليد المجتمع المحلي، فشكلت محطة مهمة في مسار اندماج المغرب الأوسط في الحضارة الإسلامية الكبرى.

وقد برزت في هذا السياق مدن عدة بالمغرب الإسلامي لعبت دوراً محورياً في نشر الثقافة والعلوم خلال العصر الوسيط، حيث أصبحت نقاط تواصل حضاري بين الأقاليم وارتبط تأسيسها بالنسق التنظيمي للمجتمع الإسلامي الذي عبّر عن نموذج متكامل للتطور العمراني والفكري، وهو ما يؤكده ابن خلدون في ربطه الجدلي بين العمران والتقدم العلمي حين أشار إلى أن التطور العلمي والفكري مرتبط بتطور الحياة الاجتماعية، فالعلوم تكثر حيث يكثر العمران والحضارة(**المقدمة، 2004،ج2، ص170**) أما بالنسبة للتسميات الجغرافية، فقد شمل لفظ المغرب تقليدياً كل ما يلي مصر غرباً، حيث قُسّم إلى مغرب شرقي برقة وإفريقية وتاهرت وطنجة والسوس، ومغرب غربي(الأندلس)، مع اختلاف المؤرخين في مدى شموليته، إذ أدخل بعضهم الأندلس ومصر وحتى صقلية وجنوب إيطاليا وسردينيا ضمن نطاقه، ثم تبلور بعد خروج المسلمين من الأندلس تقسيم جديد للمغرب إلى أدنى (تونس) وأوسط(الجزائر) وأقصى(المغرب الحالي) حيث استقر الاصطلاح الجغرافي لاحقاً على هذه التقسيمات الثلاثة التي تعكس بعدها النسبي عن مركز الخلافة الإسلامية في المشرق.

شكّلت بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ثلاث وحدات جغرافية وسياسية متميزة: المغرب الأدنى الذي امتد من برقة شرقاً إلى بجاية غرباً، حيث اتخذت القيروان عاصمة منذ عهد عقبة بن نافع وحتى الأغالبة، قبل أن تتحول العاصمة إلى المهدية في العهد العبيدي ثم إلى تونس في العهد الحفصي، والمغرب الأقصى الذي شمل المنطقة الممتدة من نهر ملوية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن السواحل الشمالية إلى الصحراء جنوباً، والذي اتخذت فيه فاس عاصمة للأدارسة ثم مراكش للمرابطين والموحدين قبل أن تعود فاس عاصمة للمرينيين، والمغرب الأوسط الذي حُصر بين المغربين الأدنى والأقصى من البحر شمالاً إلى الصحراء جنوباً، وشهد تعدد العواصم بين تاهرت للرستميين وأشير لبني زيري والقلعة لبني حماد وتلمسان لبني زيان، حيث أصبحت تلمسان المركز الرئيسي للمنطقة ودار مملكة زناتة وملتقى القبائل والتجار، إلا أن تحديد الحدود الجغرافية للمغرب الأوسط ظل إشكالياً بسبب عدم استقرار الحدود وتحركات القبائل المستمرة وتقلبات قوة الدول المتعاقبة التي استغلت القبائل لأغراض سياسية وعسكرية واقتصادية ومذهبية، وهو ما أشار إليه ابن خلدون حين وصف المغرب الأوسط بأنه بلاد قبائل زناتة الممتدة من الزاب شرقاً إلى وادي ملوية غرباً مع تلمسان كقاعدة رئيسية(**العبر، 2000، ج7، ص3**).

يقدم المؤرخون والجغرافيون المسلمون رؤى متباينة حول تحديد مفهوم المغرب الأوسط حيث يرى البكري في كتابه "المسالك والممالك" أن المغرب الأوسط يتمحور حول القبائل البربرية وخاصة زناتة التي تركزت في منطقة تلمسان التي اعتبرها قاعدة للمغرب الأوسط(**البكري ت478هـ، د.ت، ص76، 77**) ، بينما يختلف الإدريسي في رؤيته فيعتبر تلمسان "قفل بلاد المغرب الأوسط" ويجعل من بجاية قاعدة له(**الإدريسي ت548هـ، 2002، ص250**)، أما من الناحية الجغرافية، فإن حدود المغرب الأوسط تمتد شرقاً لتشمل برقة وإفريقية، وغرباً لتشمل تاهرت وطنجة وزويلة، مما يعكس التباين في التحديدات الجغرافية والقبلية لهذه المنطقة عبر المصادر التاريخية الإسلامية(**الحميري ت900هـ، 1981، ص135**).

ثانياً/ السياق التاريخي للنهضة العلمية في المغرب الأوسط:

شكَّل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب خلال القرنين الأول والثاني الهجريين (منتصف القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع الميلادي) مرحلة حاسمة في صياغة هوية المنطقة، حيث لم يقتصر أثره على الجوانب الدينية واللغوية فحسب، بل امتد ليشمل الاندماج في الحضارة الإسلامية الواسعة، والإسهام الفاعل في رُقيه، فقد مثَّل الفتح تحولاً حضارياً عميقاً غرس قيماً ثقافية جديدة تفاعل معها السكان المحليون، مما ساهم في تشكيل كيان مغربي متوازن، يجمع بين الأصالة والمعاصر ة في إطار المنظومة الإسلامية (**جعيط، 2008، ص192**).

برزت في المغرب الإسلامي مدن عدة لعبت دوراً محورياً في نشر الثقافة والعلوم خلال العصر الوسيط، حيث أصبحت نقاط تواصل حضاري بين مختلف الأقاليم، وقد ارتبط تأسيس هذه المدن بالنسق التنظيمي للمجتمع الإسلامي مما جعلها تعكس نموذجاً متكاملاً للتطور العمراني والفكري، وفي هذا الصدد، يبرز ابن خلدون العلاقةَ الجدلية بين العمران والتقدم العلمي فيقول: إن التطور العلمي والفكري مرتبط بتطور الحياة الاجتماعية؛ فالعلوم تكثر حيث يكثر العمران والحضارة (**ابن خلدون ت808هـ 2004، ص170**).

تُعد الدولة الرستمية أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية في المغرب الإسلامي، حيث مثل ظهورها بداية انفصال المغرب الأوسط عن المشرق، تلاها قيام دول مستقلة أخرى مثل الدولة الإدريسية(172هـ/788م) في المغرب الأقصى، والدولة الأغلبية

(184هـ/800م) في المغرب الأدنى، يعود تأسيس الدولة الرستمية إلى عبد الرحمن بن رستم الذي عزز نفوذه عبر جهوده الحثيثة ثم استقر بأتباعه في موقع استراتيجي بجبل جزول، بعد اتفاق مع سكانه على شراء مساكنهم مقابل حقوق التجارة في الأسواق (**الحريري، 1987، ص76**)، اتسم نظام حكمها في البداية بالبساطة، حيث حمل الحاكم لقب الإمام، وشهدت الفترة الأولى استقراراً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، خاصة في عهد الإمام أفلح، قبل أن تضعف بظهور أئمة غير أكفاء، كما تميزت الدولة بمساحتها الشاسعة وخصوبة أراضيها، مما أكسبها تنوعاً زراعياً وصناعياً، إلا أنها انهارت عام 296هـ/909م على يد الفاطميين بعد اغتيال آخر أئمتها اليقضان بن أبي اليقضان وسقطت قبل زوال دولة الأغالبة في العام ذاته.

ظهرت الدولة الفاطمية أولاً في تونس، ومن هناك انتشرت دعوتهم نحو الغرب والشرق في شمال إفريقيا، قام أحد دعاتهم المسمى عبد الله، بتدمير مدينة تاهرت التي كانت عاصمة لبني رستم، واستولى على الجزائر، ثم واصل الفاطميون تقدمهم غرباً حتى وصلوا إلى سواحل المحيط الأطلسي، فأصبحت الجزائر ولاية تابعة للفاطميين في المذهب والسياسة عندما سيطر الفاطميون على مصر، نقل الخليفة المعز لدين الله عاصمة ملكه من إفريقية إلى القاهرة عام 362هـ، وعيّن المعز بلكين بن زيري الصنهاجي نائباً عنه في الجزائر، حيث تولى حكم شمال إفريقيا، واتخذ مدينة المهدية مقراً لحكمه واستمر الحكم في أبنائه من بعده (**شبانة، 2007، ص121**)، وقد أسهمت هذه المدن في إثراء الحركة الفكرية والعلمية وجذبت العلماء والطلاب من مختلف الأقاليم المجاورة، وفيما يلي عرض لأهم هذه المدن ودورها في الحياة العلمية خلال تلك الحقبة.

1. **مدينة تاهرت:**

حظيت مدينة تاهرت التي اختارها بني رستم عاصمة لهم بإشادة العديد من الرحالة والمؤرخين الذين وصفوها بدقة حيث كانت في الماضي تتألف من مدينتين كبيرتين: إحداهما قديمة تقع على مرتفع جبلي خفيف(**الحموي ت626هـ، 1977 ج2، ص7**) وتحيط بها الأسوار، والأخرى حديثة البناء، وتبعد تاهرت عن القيروان بمسافة تفصل بينهما منطقة الزاب وهو كورة واسعة على أطراف الصحراء في جهة إفريقية، وهي منطقة كثيرة النخيل والعيون ومياهها جارية، ومدنها متصلة وعمارتها حسنة ومن مدنها المسيلة وبسكرة، ونقاوس وتهودة، وغيرها، وهي من أحسن بلاد إفريقية تربة وهواء وعذوبة ماء(**الحميري ت900هـ 1981، ص281**) وجبال الأوراس الشامخة، مما أكسبها موقعاً استراتيجياً محمياً من هجمات الأسطول البيزنطي بفضل موقعها الداخلي، وكانت مدينة تاهرت محصنة بأسوار تضم عدة أبواب، منها: باب الصفا وهو باب الأندلس، وباب المنازل، وباب المطاحن، وغيرها من المداخل التي شكلت نقاط اتصال رئيسية للمدينة، حتي عرفت بأم العسكر(**الوارجلاني ت474هـ، 1982 ص84**)؛ (**البكري ت487هـ، 2002، ج2، ص248**)؛ (**الحميري ت900هـ، 1981، ص126**).

تمتاز المدينة بموقع جغرافي فريد عند نقطة الالتقاء بين المنطقة التلية والصحراوية، مما جعلها معبراً تجارياً حيوياً يربط بين مختلف الجهات، بل وتصل تجارتها إلى ما وراء البحار عبر الطريق الرابط بين المشرق والمغرب والأندلس الإسلامية تُوصف الأندلس في المصادر التاريخية بأنها منطقة شبه جزيرة تشبه المثلث، حيث يحيط بها البحر من ثلاث جهات وتتميز بوفرة المياه الجارية والخصوبة الزراعية، خاصة أشجار النخيل التي تنتج التمر بكثرة إضافة إلى رخص العيش واتساع الموارد وتُقسّمها جبال الشارات(سييرا مورينا) إلى قسمين، وهي معروفة أيضاً باسم إسبانيا(**الحموي، ت 626هـ، ص262، 263**) ويذكر البكري في وصفه الدقيق لبناء المدينة الحديثة: "كانوا يبنونها نهاراً، فإذا جن الليل هدموا ما بنوه" في إشارة إلى الطريقة المتميزة التي اتبعها بناة

المدينة في تشييدها، هذا الموقع الاستراتيجي والبناء المتميز جعلا من تاهرت مركزاً حضارياً وتجارياً مهماً في المنطقة، وحاضنة للعديد من الحضارات التي تعاقبت على شمال إفريقيا عبر العصور(**البكري ت487هـ، 2002، ص249**).

2. مدينة أشير:

تأسست مدينة أشير(أشير زيري) في سنة 324هـ/935م، على يد زيري بن مناد الصنهاجي، مؤسس السلالة الزيرية(**ابن عذاري ت712هـ، 1983، ج1، ص216**)، بأمر من الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله، وقد أكتمل بناؤها الأساسي بحلول سنة 330هـ/941م لتصبح حصناً عسكرياً ومنطلقاً للدولة الزيرية في المغرب الأوسط، تقع مدينة أشير في جبال البربر بالمغرب الأوسط ضمن نطاق إفريقية الغربية مقابل ساحل بجاية(**الحموي، ج1، ص202، 303**)، تقع في منطقة جبلية وعرة بالقرب من جبل الكاف الأخضر (ولاية المدية)، وقد أسسها زيري بن مناد الصنهاجي جد المعز بن باديس مما جعلها تُعرف أحياناً باسم "أشير زيري" نسبة إليه(**البكري، 2002، ج2، ص240**)، حيث كانت العاصمة الأولى للدولة الزيرية قبل انتقالهم لاحقاً إلى قلعة بني حماد وبجاية، وقد ذكرها الجغرافيون كمدينة حصينة ذات موقع استراتيجي مهم في التاريخ الإسلامي للمغرب الأوسط(**البكري، ج2، ص240**)؛ (**الحموي، ج1، ص202، 203**).

في وسط البناء الثقافي والفكري المتصاعد، برزت مدن المغرب كمراكز حضارية مشعة حيث تجلت عظمتها بما ذكره ابن خلدون من إن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت، مثل البصرة والكوفة، فلم يزل العلم قائماً بخراسان وما وراء النهر، ثم انتقل إلى العراق، فكان بالبصرة والكوفة، الا أن الله ، قد أدال منها بأمصار أعظم من ذلك وانتقل العلم منها إلي عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق، ثم إلي القاهرة، وما اليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً وسند التعليم بها قائم(**ابن خلدون ت808هـ، 2004، ص170، 171**).

في هذا السياق، أدت حواضر المغرب المتعددة دوراً محورياً كوسط ثقافي وحضاري حيث تمكنت مدن المنطقة من لعب أدوار فاعلة وكبيرة، مساهمة في بناء المشهد الحضاري الإسلامي، ولم يتوقف دورها عند ذلك بل تحولت إلى مراكز استقطاب للعلماء والمشايخ من مختلف مناطق المغرب وخارجها، خاصة في أيام الرخاء والازدهار(**نعيمة، 2018، ع7، ص99**).

3. مدينة تلمسان:

تقع مدينة تلمسان في أقصى غرب الجزائر، ضمن منطقة جبلية تُعرف باسم جبال تلمسان، وعلى هضبة مرتفعة تمنحها موقعاً استراتيجياً ومناخاً معتدلاً من طراز متوسطي، وتتميز بطيب هوائها وبطبيعتها الساحرة وتنوعها البيئي، حيث تنتشر فيها العيون المائية الغزيرة والتي تُعد عاملاً مساعداً على النشاط الزراعي(**ابن خلدون ت788هـ، 1903، ص21**) وتعد تلمسان من أعرق الحواضر الإسلامية في المغرب الأوسط، إذ يعود تاريخها إلى العصور القديمة، لكنها شهدت أوج ازدهارها في العصر الإسلامي، خاصة خلال حكم الدولة الزيانية القرن 13-16م، التي اتخذتها عاصمة رسمية لها، وقد أصبحت حينها مركزاً دينياً وعلمياً وتجارياً، ومحطة استراتيجية للقوافل التجارية المتجهة نحو غرب إفريقيا والأندلس وأوروبا(**شقدان، 2002، ص192**).

عرفت المدينة حركة علمية وثقافية لافتة، بفضل تشجيع سلاطين الدولة الزيانية للحركة الثقافية والعلمية داخل تلمسان، وذلك من خلال بناء المدارس الخاصة للتدريس، وتعيين الجرايات للمدرسين والطلاب، فقد أُعتبرت المدرسة التاشفينية التي تأسست سنة 1320م على يد السلطان أبي تاشفين الزياني، من أبرز المؤسسات التعليمية بالمغرب الإسلامي، وقد استقبلت

هذه المدرسة نخبة من علماء الأندلس الذين هاجروا بعد سقوط الأندلس، وأسهموا في ترسيخ مكانة تلمسان كمركز علمي مرموق، وممن درس بهذه المدرسة الشريف التلمساني(771هـ) وسعيد العقباني(811هـ) واللذين ينسب لهما الدور الكبير في ترسيخ التصوف الفقهي المعتدل(**شقدان، 2002، ص224**)، كما كانت المدينة مهداً للعديد من التيارات الفكرية والصوفية وبرز منها أعلام كبار مثل: ابن مرزوق التلمساني(1310-1379م) أحد فقهاء المالكية البارزين، والذي لعب أدواراً دبلوماسية في بلاط المغرب والأندلس، والشيخ محمد بن يوسف السنوسي، وهو من علماء علم الكلام والصوفية، وصاحب العقيدة السنوسية الشهيرة التي كانت تُدرّس في المعاهد الإسلامية بالمغرب، صاحب العقيدة السنوسية الشهيرة، وكذلك أبوعبد الله الشريف التلمساني والشيخ العقباني، وهما من رواد الفكر الصوفي والفقه المالكي.

اقتصادياً تعتمد تلمسان على الزراعة باعتبارها النشاط الرئيسي، نظراً لخصوبة تربتها ومناخها المتوسطي المعتدل وتشتهر بزراعة الكروم والزيتون والتين والرمان، إضافة إلى محاصيل الحبوب والخضر الموسمية(**ابن خلدون ت788هـ، 1902، ص10**) كما تُمثّل الصناعات جانباً مهماً في الاقتصاد المحلي مثل النسيج وصناعة الجلد والفخار، حيث تحتفظ تلمسان بمكانتها كمركزٍ للحرف والصنائع والتي تعد مظهراً بارزاً يميز تلمسان في الفترة الوسيطة كغيرها من المدن الإسلامية وقتئذ، ومن بين الصناعات التي نالت اهتماماً خاصاً في تلمسان أبان الحكم الزياني مثلاً الصناعات المعدنية وذلك لارتباطها بالحياة المدنية والعسكرية ويرجع السبب في تطورها إلى وفرة المواد الأولية في الدولة وقربها من مناجم الحديد والذهب والزنك بشكل خاص(**البكري ت487 د.ت، ص77**) وقد ساعد الموقع الجغرافي للمدينة، وقربها من الحدود المغربية، على تنشيط الحركة التجارية وتعزيز الروابط الاقتصادية عبر العصور، مما يعكس تنوع الاقتصاد المحلي واستمراريته منذ العصور الإسلامية(**خالدي، 2021، ص65**).

ثالثاً/ مظاهر التطور العلمي والفكري وانعكاساته على مسار الحضارة الإسلامية:

1. دور الدولة والمجتمع في ازدهار الحركة العلمية:

يُذكر أن حكام المغرب الأوسط اتبعوا سياسة انفتاح تجاه العلماء، حيث لم يفرضوا أي قيود على تنقلهم أو إقامتهم ضمن أراضي دولتهم، بل منحوهم نفس الامتيازات التي كان يتمتع بها نظراؤهم في مختلف أرجاء المغرب الإسلامي وقد تولى عدد من هؤلاء العلماء الوافدين مناصب رفيعة في الدولة، مما يعكس تقدير الحكام لدورهم العلمي والإداري كما شهدت حركة طلب العلم داخل المغرب نشاطاً ملحوظاً، حيث تنقل الطلاب والعلماء بين أهم مراكز العلم في المنطقة، وعلى رأسها مدن تاهرت وفاس وسجلماسة، بل امتدت رحلاتهم العلمية حتى وصلت إلى الأندلس، مما يدل على التواصل الفكري الوثيق بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي الغربي في تلك الفترة(**عبد العزيز، 1987، ص31**).

قام الأئمة والنخبة المثقفة بدور محوري في نقل العلوم من اللغتين الفارسية والرومية إلى اللغة العربية، كما سعوا إلى تعميم تعلم العربية لتمكين الراغبين في الاطلاع على تراث اليونان والرومان والفرس والهند من الوصول إلى هذه المصادر، وقد أصبحت اللغة العربية الفصحى لغة رسمية في الدواوين نظراً لمكانتها كلغة القرآن الكريم، وبذلت النخبة جهوداً كبيرة لنشر العربية في المناطق النائية من خلال تدريس العلوم الشرعية، حيث حث بعض العلماء الناس على تعلمها وفي هذا الصدد، قال الشيخ أبو زكريا النفوسي- أحد مؤلفي ديوان الأشياخ: أن تعلم حرف من العربية كتعلم مسألة ثابتة من مسائل الفقه، وتعلم مسألة فقهية كعبادة ستين سنة، ومن أدخل كتاباً إلى بلد لم يكن فيه فكأنما تصدق بألف دينار على أهل ذلك البلد، وأقبل طلاب العلم بمختلف

مستوياتهم على دراسة اللغة العربية وإتقان قواعدها النحوية لضبط التحدث بها، ومع هذه الجهود الكبيرة، فقد ظلت هناك بعض الثغرات في مسيرة التعريب(**فياض، 1996، ص84**).

ازدهرت في الدولة الرستمية حركة علمية واسعة شملت مختلف فروع المعرفة، حيث تنوعت بين العلوم النقلية كالتفسير والحديث والفقه، والعلوم العقلية مثل النحو والأدب العربي بمختلف فنونه من نثر وشعر، وقد ساهم وجود تعددية مذهبية في إثراء الحياة الفكرية، مما شجع على انتشار ثقافة المناظرات والجدل العلمي، كما اهتم الرستميون بالعلوم التطبيقية كالطب والحساب والفلك وعلم التنجيم، وقد برز خلال هذه الفترة عدد من العلماء البارزين الذين أسهموا في تطوير هذه العلوم والفنون، ومن المعلوم فإن الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي من أهم العوامل التي أسهمت في تطور الجانب الفكري، وأهلّ مدينة تاهرت لتكون عاصمة الفكر والعلم في المغرب الأوسط(**ميزان، 2023، ص320**).

لعب المشايخ دوراً محورياً في الحلقات العلمية التي كانت تُعقد في المسجد الجامع، ومن أبرزهم أبي داود القبلي أحد حملة العلم القادمين من البصرة، والذي بذل جهوداً كبيرة في تعليم المغاربة وتثقيفهم دينياً، ويُعد عاصم السدراتي من أبرز المعلمين الذين كرسوا حياتهم لهذه المهمة، حيث كان ينتقل بنفسه بين مضارب الناس، يجوب المدن والقرى من غدامس غرباً حتى جبال الأوراس، معتمداً في طريقه على مصليات متنقلة لإقامة دروس الوعظ والإرشاد والتعليم.

وقد تخرج على يد السدراتي عدد من الطلاب البارزين مثل أيوب بن العباس وأبي مرداس وأبي الحسن الأبدلاني ومحمد بن يانس وغيرهم، كما تحولت منازل العلماء إلى مراكز للتعليم والتثقيف، مثل منزل أبي ذر أبان بن وسيم الذي كان يقصده الرجال والنساء على حد سواء، ومنزل أبي هارون الجلامي موسى بن يونس النفوسي الذي اشتهر بقولهم عنه: "لو علم الناس ما ينفعهم لازدحموا عند باب داره كما يزدحمون عند باب دار أبي عبيدة بالبصرة"(**بكير، 1993، ص284–286**).

برزت العلوم التطبيقية –المتمثلة في الطب والحساب والفلك وغيرها– كعلوم عقلية أهتم بها الإباضية، حيث يؤكد ابن خلدون أن العلوم العقلية هي طبيعة للإنسان من حيث أنه ذو فكر وغير مختصة بأهل ملة من الملل بل هي موجودة في النوع الإنساني(**ابن خلدون ت808هـ، 2004، ص248**)، وقد وردت إشارات لهذه العلوم في مؤلفات الإباضية، كما تميز الأئمة الرستميون بإتقانها، وفي مجال الطب تحديداً أشار ابن أصيبعة في كتابه "طبقات الأطباء" إلى عدد محدود من الأطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب أو أقاموا بها، مقارنة بالتفصيل الواسع الذي خصصه لأطباء الأندلس، مما يدل على وجود هذه العلوم وإن كان توثيقها أقل من غيرها في المصادر التاريخية(**أبي أصيبعة ت668هـ، 1956، ص478–539**).

2. إسهام المسجد في نشر المعرفة وتعزيز النشاط الفكري:

شكّل المسجد خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين مركزاً رئيسياً للإشعاع الفكري والثقافي في المغرب الأوسط إذ اضطلع بدور محوري في نشر العلوم والمعارف، وتكوين النخب العلمية والدينية التي أسهمت في بناء الحياة الفكرية والاجتماعية آنذاك، حيث انتظمت حلقات الدراسة في فنونه لنشر العلوم الشرعية واللغوية بينما نمت المكتبات العامة والخاصة –كالمكتبة الرستمية– كحاضنات للمعرفة، تُعنى بجمع المخطوطات وتشجيع التأليف، مما أسهم في ازدهار حركة علمية غنية تنوعت بين العلوم النقلية والعقلية، وقد مثّل هذا التكامل بين المسجد والمكتبة نواةً للنظام التعليمي الذي أفرز جيلاً من العلماء الذين أسهموا في بناء الحضارة الإسلامية بالمنطقة، وتركوا تراثاً فكرياً امتد تأثيره عبر القرون.

لعبت المساجد دوراً محورياً في النظام التعليمي للدولة الرستمية، حيث كانت مراكز إشعاع علمي تبدأ بالكتاتيب لتعليم الصغار مبادئ اللغة وحفظ القرآن على ألواح خشبية بسبب ندرة الورق، ثم تتطور إلى حلقات علمية متخصصة في الفقه الاباضي والتفسير وعلم الكلام والمناظرات تحت إشراف شيوخ مثل "حملة العلم الخمسة" والأئمة عبد الرحمن بن رستم وابنه عبدالوهاب (**بكير، 1993، ص275–277**).

تميز المسجد الجامع في تاهرت كأهم مؤسسة تعليمية، حيث خالف الرستميون التقاليد العمرانية الإسلامية ببنائه قبل دار الإمارة والسوق، مما يعكس أولوية التعليم في دولتهم التي وصفها المؤرخون بـ"دولة العلم والمعرفة" لانشغالها بنشر العلوم بين جميع الطبقات عبر مدارس نظامية اتخذت من المساجد مقراً لها، مع تركيز خاص على غرس القيم الدينية والعلمية من خلال معلمين جمعوا بين التقوى والكفاءة الأكاديمية(**ميزان، 2023، ص321**)، كما أسس الفاطميين المساجد ودور الكتب وغيرها من أجل نشر الدعوة وخدمة المذهب وبذلك كان نشاطهم في هذا المجال متنوعاً حيث بنو المدن والقرى وغيرها.

لعب المسجد في عهد الرستميين دوراً هاماً في نشر العلم، فقد كان طلاب العلم يحصلونه في مساجد تاهرت ونفوسة على أيدي كبار علماء الاباضية في أصول الدين والشريعة والرياضيات والطب والكيمياء وغيرها من العلوم، ومن المراكز العلمية الهامة في الدولة الرستمية مركز تاهرت، ومركز جبل نفوسة الذي حمل شعلة العلم في عهد الرستميين، فظهر من علمائه الشيخ مهدي النفوسي، ويعقوب بن أفلح، ومحمد بن يانس، وأبو الحسن الأبدلاني وغيرهم (**بكير، 1993، ص275، 286**).

3. المكتبات:- تُعد من أهم المؤسسات الثقافية في حاضرة تاهرت كونها أسهمت في توسيع نطاق الحضارة والحفاظ عليها ونقلها تباعاً للأجيال، وعندما اتسع أفق المسلمين العقلي وازدهرت حضارتهم وتنوعت اهتماماتهم الفكرية زاد عدد هذه المكتبات(**ميزان، 2023، ص323**)، برز الأئمة الرستميون كأعلام للثقافة والعلم، حيث اشتهروا بجمع الكتب القيمة من المشرق والإسهام في التأليف عبر مختلف التخصصات العلمية، مما يعكس عمق صلاتهم الثقافية مع مراكز العلم في المغرب والأندلس (كالقيروان وفاس وقرطبة) والمشرق(كبغداد والبصرة ومصر)، (**الحريري، 1987، ص236**)، وقد تميزت الأسرة الرستمية بحبها للعلم واتساع ثقافتها في شتى المجالات(**بكير، 1993، ص288**). ومن الأمثلة البارزة على الاهتمام الثقافي في العهد الرستمي ما قام به عمروس بن فتح النفوسي، من نسخ "مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخرساني" التي تضم اثني عشر جزءاً(**بكير، ص288، 289**) وقد أسهمت المكتبات بدور محوري وبارز في إثراء الحركة العلمية والفكرية، مما حدا ببني رستم إلى إنشاء مكتبة المعصومة التي تعد من أضخم المكتبات في المغرب الإسلامي، حيث ضمت المكتبة المذكورة نحو ثلاثمائة ألف مجلد شملت مختلف فروع العلم والمعرفة (**حمودة، 2007، ص344، 345**) وهذا يدل على أن الدولة الرستمية قامت على أسس فكرية حضارية، إلا أن هذه الذخيرة العلمية تعرضت للتدمير على يد الفاطميين عند استيلائهم على تاهرت، حيث أحرقوا محتوياتها بهدف محو التراث الاباضي، ولم ينجُ منها سوى الكتب المتعلقة بالرياضيات والفلك والهندسة والطب، كما اشتهرت في المنطقة مكتبة أخرى عرفت بخزانة نفوسة والتي كانت تقع بمدينة شروس بجبل نفوسة(**ميزان، 2023، ص323**).

تشكلت المكتبة الرستمية نتيجة حركة نشطة لجلب الكتب من المشرق وعمليات النسخ الواسعة، بالإضافة إلى اهتمام الإباضية البالغ بتأليفات أئمتهم الرستميين وغيرهم من العلماء حيث يذكر ابن خلدون عن إباضية جربة أنهم "يتدارسون مذاهبهم وبينهم مجلدات تشتمل على تأليف لأئمتهم في قواعد دياناتهم وأصول عقائدهم وفروع مذاهبهم يتناقلونها ويعكفون

على دراستها وقراءتها"(**بكير، 1993، ص297**)، كما تعددت أماكن طلب العلم في تلك الفترة ما بين كتاتيب وحلقات المسجد ومنازل العلماء والمكتبات العامة والخاصة وغيرها من المؤسسات التعليمية التي أسهمت بشكل كبير في إثراء الحركة العلمية وتنشيطها.

شهد العصر الرستمي ازدهاراً فكرياً ارتبط بشكل وثيق بالمذهب الاباضي، حيث بدأ انتشاره على يد الداعية سلمة بن سعيد الذي اختار أربعة من أتباعه وأطلق عليهم "حملة العلم" فأرسلهم إلى البصرة لتلقي العلم على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ثم عادوا إلى المغرب لينشروا المذهب عبر حلقات علمية مكثفة في المساجد، شملت تدريس الأصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وعلوم اللغة والفلك والرياضيات، إلى جانب تعريب البربر، كما تميزت الحياة العلمية بالدراسات الدينية من تفسير وحديث وفقه في حلقات علمية كانت تجمع بين العامة وطلاب العلم المتفرغين بدعم وتشجيع من العلماء مثل أبي خليل اليدركلي(**الدرجيني ت670هـ، 1974، ج1، ص299، 300**).

ذكر البكري أن عبد الرحمن بن رستم عند فراره من العباسيين واستقراره بالمغرب الأوسط اختار تاهرت عاصمة لدولته فبدأ ببناء المسجد الجامع الذي استمر قائماً حتى ذلك الوقت وكان يتكون من أربع بلاطات(**المسالك، 2002، ص250**) أدركت الدولة الرستمية أن سر تقدمها يكمن في الاهتمام بالعلم، فجعلت من المساجد مراكز تعليمية في كل حي، مما ساهم في انتشار العلوم النقلية والعقلية، حتى اشتهرت تاهرت باسم "عراق المغرب" لمجاراة العراق في العلوم وضمت مساجدها حلقات علمية متنوعة في التفسير والحديث والفقه وأصوله، إضافة إلى الأدب والنحو والصرف والمنطق والرياضيات والفلك والطب(**ميزان، ص320–321**)، تميزت الدولة بمكتبة المعصومة الفريدة، مما يعكس تقدمها العلمي الذي قد يكون سبباً في إهمال الجانب العسكري وسقوطها لاحقاً، اعتمد الرستميون نظام حلقات العلم في المساجد حيث تولى الأئمة والعلماء التدريس، وكان الأئمة أنفسهم –كعبد الرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب– يدرسون في أوقات فراغهم، مما يؤكد مكانة العلم في هذه الدولة(**بكير، ص281**).

4.حلقات العلم:

لقد شكلت حلقات العلم في المغرب الأوسط إحدى أهم الركائز التي قام عليها صرح المجتمع الأباضي، حيث لعبت دوراً محورياً في ترسيخ العلوم ونشر المعرفة بين أفراد المجتمع حيث كان سلمة بن سعيد أول داعية لهذا المذهب، وقد اختار أربعةً من أتباعه المعتَنقين للأفكار الإباضية وأطلق عليهم لقب "حملة العلم" (ليصبحوا خمسة معه)، ثم أوفدهم إلى البصرة لدراسة العلم تحت إشراف الداعية الاباضي الكبير أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وبعد عودتهم إلى بلاد المغرب بدأوا بنشر تعاليم المذهب الاباضي عبر حلقات علمية مكثفة في المساجد، حيث قاموا بتعليم أتباعهم أصول الدين وفروعه، والسير والمواعظ، والتوحيد والشريعة، وآراء الفرق الإسلامية، بالإضافة إلى علوم اللغة والفلك والرياضيات، كما اضطلعوا بمهمة تعريب البربر ودمجهم في الحضارة الإسلامية مما ساهم في تحضيرهم وتطوير مجتمعاتهم (**ميزان، 2023، ص320**).

ومع ذلك، فإن هذا التركيز الكبير على الجانب العلمي والحضاري جاء على حساب الجانب العسكري الذي لم يحظَ بالعناية الكافية، مما أضعف من هيبة الدولة وجعلها عرضة للانهيار، وقد تجلت عوامل السقوط في بروز الكيان الفاطمي القوي على الساحة السياسية بالمغرب الإسلامي، وما صاحب ذلك من اضطرابات داخلية تمثلت في الصراعات على الحكم بين الأئمة

المتأخرين، وانتشار الفوضى في دواليب الحكم، بالإضافة إلى تسرب الأفكار الشيعية بين القبائل البربرية وحتى داخل أوساط الدولة نفسها، ولا شك أن إهمال الجانب العسكري –الذي كان يشكل في تلك الحقبة التاريخية العمود الفقري لأي دولة– كان أحد الأسباب الجوهرية التي عجلت بالسقوط، كما أن سياسة التسامح الفكري المفرطة التي اتبعتها الدولة، حيث تركت جميع الفرق والجماعات تعمل بحرية دون أي مضايقة أو طرد، ساهمت بشكل غير مباشر في تسريع عملية الانهيار، على الرغم من الإنجازات العلمية والحضارية الكبيرة التي حققتها الدولة في مجال نشر المعرفة وتطوير الحركة الفكرية(**بن حليمة، بكير، 2021 ص496**).

واتبع الفاطميون نفس النهج بالاعتماد على أسلوب المناظرات مع مختلف الفرق مستفيدين من انتشار الدعاة بينهم حيث كانت تلك المناظرات تُعقد في أماكن مثل الرقادة والقيروان والمهدية، ثم تنتشر أخبارها وتفاصيلها على الألسن في جميع أنحاء إفريقية، وارتكزت هذه المناظرات على قضايا شرعية أبرزت الخلافات بين الطرفين، ومن أبرزها مسائل مثل "تفضيل علي بن أبي طالب" و"صلاة التراويح" و"القياس" و"حد شارب الخمر" و"فضل العالم على المتعلم" بالإضافة إلى قضايا فقهية أخرى تتعلق بما يُعرف اليوم بقوانين الأحوال الشخصية في قانون الأسرة، مثل "الزواج والطلاق" و"ميراث البنات"، كما اعتمدت الخلافة الفاطمية أسلوب الإغراء لاستقطاب العلماء وتحويلهم إلى المذهب الشيعي، عبر منحهم الهبات والعطايا، مما أدى إلى تحول العديد من علماء أهل السنة، خاصة الموظفين منهم، إلى المذهب الشيعي(**ابن عذاري ت712هـ، 1983، ص216–218**).

5. دور الحوار والمناظرة في تعزيز الحركة العلمية والتعددية الدينية في تاهرت:

برزت في حلقات العلم والتدريس بالدولة الرستمية مجموعة متنوعة من العلوم، بما في ذلك العلوم الشرعية بفروعها المختلفة والعلوم العقلية، إلا أن ما ميز هذه الحلقات بشكل خاص هو الاهتمام البالغ بفن المناظرة والجدل الذي أصبح سمة مميزة للحياة الثقافية في هذه الدولة وقد ارتبط هذا الاهتمام بالطبيعة التعددية للمجتمع الرستمي الذي عُرف بتسامحه الديني وانفتاحه على مختلف المذاهب والنحل الكلامية(**نمر، 2022، ص132**)، فقد فتح الرستميون المجال واسعاً أمام حركة الفكر، فلم يضايقوا أحد ولا طردوا مخالفاً، بل إن من أتى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الأباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك(**نمر، ص132**).

لم تكن هذه التعددية الدينية والمذهبية سبباً فقط في التسامح بل شكلت محفزاً حيوياً لإنتاج علمي وثقافي متنوع، حيث ساهم هذا المناخ المفتوح في استقطاب علماء من خلفيات فكرية متعددة، مما أثر إيجابياً على تطور العلوم والفنون، إضافة إلى ذلك لعبت المؤسسات التعليمية كالكتاتيب والزوايا إلى جانب المساجد دوراً أساسياً في نشر العلوم الشرعية والعقلية، مما يعكس نظاماً مؤسسياً متكاملاً للحركة العلمية، كما ارتبطت هذه المؤسسات بنظام تنظيمي متطور حيث تم تأسيس مكتبات عامة وخاصة ضمن المدن الرستمية، تحوي مجموعات قيمة من المخطوطات والكتب في مختلف العلوم كالفقه، والحديث، والتفسير والرياضيات، والفلك، مما كان له أثر مباشر في تنشيط البحث العلمي والتبادل الفكري(**بن حليمة، بكير، ص493–494**).

لقد تحولت المدن الرستمية، وخاصة عاصمتهم تاهرت، إلى بوتقة تنصهر فيها الأفكار والمذاهب المختلفة وكما يذكر ابن الصغير، كان كل حي يُسمى بأسماء الوافدين إليه حيث انتشرت أسماء مثل "حي الكوفيين" و"حي البصريين" كما تعددت

المساجد حسب المذاهب مثل "مسجد القرويين" و"مسجد البصريين"(**ابن الصغير كان حياً ق9هـ، 1986، ص32**)، هذا التنوع الثقافي والديني استلزم تطوير مهارات الحوار والمناظرة، مما دفع العلماء إلى إتقان مختلف الفنون العلمية وعدم الاقتصار على مجال ضيق.

ولم يكن فن المناظرة والجدل مقتصراً على العلماء فقط، بل كان جزءاً من الثقافة الاجتماعية العامة، حيث كانت المجتمعات تقدر الحجة العقلية وتتبنى النقاش المنظم كوسيلة للوصول إلى الحقيقة وقد ساهم هذا التنافس الفكري في رفع مستوى التعليم والعلوم، حيث برز علماء رستميون في مختلف التخصصات ففي التفسير برز هود بن محكم الهواري وهو من أبرز مفسري الإباضية بالمغرب الأوسط، وكانت له حلقة علم في تاهرت يُدرس فيها تفسير القرآن وفق المذهب الإباضي(**نويهض، 1980 ص338**)، وفي علم الحديث برز منهم الربيع بن حبيب "صاحب المسند" وأحد أبرز علماء المذهب الاباضي(**الورجلاني ت175هـ 2002، ص5**) أما في الشعر فقد برز بكر بن حماد التاهرتي وهو أحد أبناء قبيلة زناتة رحل في مقتبل عمره إلى القيروان التي تلقى فيها علومه الحديث واللغة، وأوغل في رحلته حتى وصل البصرة وفيها تتلمذ على مسدّد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده في الحديث النبوي، وسيعنى فيما بعد بإذاعته في الديار المغربية، وتتلمذ على شيوخ البصرة في اللغة حينذاك من أمثال ابن الأعرابي(**ضيف، 1995، ص158، 159**).

كما ترك أئمة الدولة الرستمية الأوائل مؤلفات قيمة في العلوم الدينية، مما يعكس عمق الحركة العلمية في هذه الدولة، وكانت المناظرات العلمية إلى أداة لتطوير الفكر واختبار الآراء، حيث انعكس ذلك على تطور المدارس الفقهية المختلفة، مع الحفاظ على إطار من الاحترام المتبادل رغم اختلاف المذاهب، وهو ما يبرز طبيعة التسامح الفريدة في المغرب الأوسط آنذاك وهو ما ساهم في إثراء الحياة الثقافية وازدهار الحركة العلمية في المغرب الإسلامي خلال تلك الفترة(**بن حليمة، بكير، ص502 503**)، وقد ساهم كذلك ارتباط الدولة الرستمية بعلاقات ثقافية وعلمية مع الأندلس وبقية المشرق الإسلامي في تبادل الأفكار والنظريات العلمية، مما أضاف بعداً عالمياً للنهضة العلمية في المغرب الأوسط كما أتاح فرصة للاطلاع على المدارس الفقهية المختلفة والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة.

وقد أسهمت هذه البيئة الفكرية والحوارية المتنوعة في بناء قاعدة معرفية غنية، انعكست في إنتاج مؤلفات علمية أثرت لاحقاً في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، مما يبرز مكانة المغرب الأوسط كمركز علمي حضاري خلال تلك الحقبة.

الخاتمة:

بناء على ما تم عرضه فيما سبق يمكننا أن نستنتج التالي:

– شكَّل القرنان الثاني والثالث الهجريان(8–9م) مرحلة التأسيس الحقيقية للنهضة العلمية والفكرية، في المغرب الأوسط، لم تكن هذه الفترة مجرد بداية زمنية، بل كانت بوتقة انصهرت فيها الأصلية مع زخم الفكر العربي الإسلامي الوافد من المشرق، مما أنتج حراكاً فكرياً فريداً، في هذا السياق برزت مدن ومراكز علمية مهمة مثل تاهرت(عاصمة الرستميين) وتلمسان كمنارات للعلم والمعرفة، وقد تحولت هذه المدن إلى نقاط إشعاع للفقه والحديث والعلوم العقلية جاذبة إليها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب، إلى جانب دور المدارس الفكرية المتميز كالإباضية في الأوراس والمذهب المالكي في الغرب.

– شهد المغرب الأوسط خلال فترة حكم الدولة الرستمية نهضة علمية بارزة، تجلت في بروز عدد من المراكز الحضرية التي تحولت إلى منارات للعلم والمعرفة.

– كما أسفرت هذا النشاط عن نتائج علمية ملموسة تجلت في ازدهار علوم الحديث وظهور رواة ومحدثين أثروا المكتبة الإسلامية، وتطور الفقه المالكي الذي أصبح لاحقاً السمة البارزة للمغرب الإسلامي، بالإضافة إلى الاهتمام العميق بعلم الكلام والعلوم العقلية، خاصة لدى الاباضيين الذين أقاموا دولة على أسس دينية وفكرية واضحة.

– لقد كانت هذه المرحلة بمثابة الجذور العميقة التي غذّت الشجرة الوارفة للحضارة في المغرب الإسلامي، والتي امتدت أغصانها لتؤثر في مسارات الفكر في حوض المتوسط بأكمله خلال القرون اللاحقة، ممهدةً الطريق لظهور قامات فكرية كبرى مثل ابن خلدون وغيره ممن ورثوا هذا الإرث الغني وطوروه.

– ختاماً يمكن القول إن هذين القرنين لم يضعا اللبنات الأولى للنظام التعليمي والعلمي في المغرب الأوسط فحسب، بل رسّخا هوية ثقافية قادرة على التفاعل والعطاء.

قائمة المصادر والمراجع:–

1. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين(1956)، ***عيون الأنباء في طبقات الأطباء***، *تحقيق: نزار رضا*، بيروت، دار مكتبة الحياة.
2. ابن خلدون، أبي زكريا يحي(1903)، ***بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد***، الجزائر، مطبعة بيير فونطانا.
3. ابن خلدون، عبد الرحمن(2000)، ***العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر***، بيروت، دار الفكر.
4. ابن خلدون، عبد الرحمن(2004)، ***المقدمة***، *تحقيق: عبد الله الدرويش*، دمشق، دار البلخي.
5. ابن الصغير(1986)، ***أخبار الأئمة الرستميّين***، *تحقيق: محمد ناصر، إبراهيم بحاز*، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
6. ابن عذاري(1983)، ***البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب***، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الثقافة.
7. البكري، أبي عبيد عبدالله(د.ت)، ***المغرب في ذكر بلاد أفريقية المغرب***، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
8. ـــــــــــ، ***المسالك والممالك***(2002)، *تحقيق: جمال طلبة*، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت.
9. الحموي، ياقوت(1977)، ***معجم البُلدان***، بيروت، دار صادر.
10. الحميري، محمد بن عبد المنعم(1981)، ***الروض المعطار في خبر الأقطار***، *تحقيق: إحسان عباس* ، بيروت، مكتبة لبنان.
11. الدرجيني، أحمد بن سعيد(1974)، ***طبقات المشائخ بالمغرب***، *تحقيق: إبراهيم طلاي*، الجزائر، مطبعة البعث.
12. الوارجلاني، يحي(1982)، ***سير الأئمة وأخبارهم***، *تحقيق: إسماعيل العربي*، الطبعة الثانية، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
13. بكير، بحاز(1993)، ***الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية***، الطبعة الثانية، الجزائر، جمعية التراث.
14. الورجلاني، أبي يعقوب يوسف(2002)، ***مسند الربيع بن حبيب الفراهيدي***، عُمان، مكتبة مسقط.

15. بن حليمة، صديق؛ بكير، بحاز(2021)، ***الحياة العلمية والثقافية للإباضيين من القرن الثالث هجري إلى منتصف القرن السابع هجري 200-634هـ***، جامعة وهران، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، المجلد العاشر، العدد الثاني.

16. جعيط، هشام(2008)، ***تأسيس الغرب الإسلامي- القرن الأول والثاني الهجري/السابع والثامن الميلادي***، الطبعة الثانية، بيروت، دار الطليعة.

17. الحريري، محمد(1987)، ***الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي***، الكويت، دار القلم.

18. حمودة، عبد الحميد(2007)، ***تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية*** القاهرة، الدار الثقافية للنشر.

19. خالدي، رشيد(2021)، ***صناعة النسيج في تلمسان الزيانية 633-962هـ/1236-1554م الإنتاج والمبادلات*** الجزائر، مجلة الإنسان والمجتمع، المجلد 9، العدد 18، 2021.

20. شبانة، محمد(2007)، ***الدويلات الإسلامية في المغرب دراسة تاريخية حضارية***، القاهرة، دار العالم العربي.

21. شقدان، بسام(2002)، ***تلمسان في العهد الزياني***، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية.

22. ضيف، شوقي(1995)، ***تاريخ الأدب العربي، الجزء العاشر***، القاهرة، دار المعارف.

23. عبد العزيز، محمد(1987)، ***التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية***، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

24. فياض، صالح(1996)، ***المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب***، جامعة دمشق، دراسات تاريخية لجنة كتابة التاريخ، العددان55-56، (مارس-يونيو).

25. مكيوي، محمد(2010)، ***عوامل ازدهار الحياة الفكرية في القرنين 7 و 8هـ بالمغرب الأوسط***، الجزائر، جامعة قاصدي، مجلة الأثر، العدد9، ماي.

26. ميزان، مفيد(2023)، ***إسهامات علماء حاضرة تيهرت الرستمية وجهودهم في تفعيل الحركة العلمية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي***، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، مجلة اللغة العربية، المجلد25، العدد64.

27. نعيمة، طيب(2018)، ***من حواضر المغرب الأوسط: مدينة تلمسان***، مجلة القرطاس، العدد7، يناير.

28. نمر، بومدين(2022)، ***التعايش والتسامح المذهبي والديني والعرقي في دولة الرستميين***، جامعة وهران، مجلة عصور المجلد12، العدد1، مايو.

29. نويهض، عادل(1980)، ***معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر***، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية.